إلى الأستاذ توفيق الحكيم

الأستاذ سيد قطب

— ١ —

صديقي الكبير الأستاذ توفيق الحكيم.

شكراً لك على هديتك الكريمة: كتابك الجديد «الملك أوديب». إنها شيء عزيز ثمين بالقياس إليّ هنا في تلك «الورشة» الضخمة السخيفة، التي يسمونها: «العالم الجديد»!

لقد استروحت في كلمة الإهداء: «ممن يذكرك دائماً» نسمة رخية من روح الشرق الأليف — فالذكرى هي خلاصة هذه الروح — وما كان أحوجني هنا إلى تلك النسمة الرخية... إن شيئاً واحداً ينقص هؤلاء الأمريكيين — على حين تذخر أمريكا بكل شيء — شيء واحد لا قيمة له عندهم — الروح!

بحث يقدم للدكتوراه في إحدى جامعاتهم — وقد قدم فعلاً — عن: «أفضل الطرق لغسل الأطباق» أحب إليهم ألف مرة وأهم من رسالة عن «الإنجيل»، إن لم يكن أهم من ذات الإنجيل!

أما وأنا أكتب إليك هذه الكلمات في مطعم، شاب أمريكي يثب على صدره «سبع» ويجثم على ظهره «فيل»! لا تُرعْ! فذلك السبع إنما هو رسم يملأ فراغ رباط عنقه، وهذا الفيل إنما هو رسم كذلك يملأ فراغ سترته! لقد رسم السبع باللون البرتقالي الفاقع على أرضية «أخضر زرعي»، ورسم الفيل باللون الكحلي على أرضية «كرنبي»، وهذا السبع مع رباط الرقبة مدلى فوق الصدرية لا تحتها حسب مزاج «التقاليع»!

هذا هو الذوق الأمريكي الغالب في الألوان!

والموسيقى... ولكن مالي وهذا كله؟ إن ذلك حديث آخر ليس وقته الآن.

أردت فقط أن أقول لك: كيف كانت هديتك لي في «العالم الجديد»!

***

أشعر بأنني أرد لك بعض جميلك حين أحدثك بصراحة كاملة عن عملك الفني الجديد، مؤثراً هذه الطريقة على كتابة مقالة نقد. لست في الآن أقل رغبة لكتابة مقالات، وليس لدي الوقت أيضاً؛ إنما يشجعني على الكتابة اللحظة أنني أستحضر شخصك في خيالي، وأبادلك حديثاً بحديث، ليس فيه كلفة التحضير، ولا تعمل الفكرة، ولا اصطناع الأسلوب... ما أحوجني هنا لأن أبادله حديثاً بحديث، في غير موضوع الدولارات ونجوم السينما وماركات السيارات... حديثاً في شؤون الإنسان والفكر والروح!

***

دعني أحدثك أولاً عن «المقدمة» فهي تكوّن مع «مقدمة الترجمة الفرنسية» و«التعقيب على المقدمة الفرنسية» مبحثاً خاصاً له قيمة ذاتية في موضوعه. ثم إن الحديث عنه قد يكون في ذاته حديثاً عن تمثيليتك الجديدة.

وأسر معاً خطوة خطوة في بحثك الممتع الطويل...

مالي أحس — أيها الصديق الكريم — كأنك خائف قلق من ذاكرة التاريخ؟ ذلك الخوف وهذا القلق اللذان يدفعانك دفعاً إلى تسجيل دورك بقلمك في خط سير التمثيلية العربية؟

أحب أن أطمئنك منذ اليوم على أن التاريخ الأدبي لن ينسى لك دورك الأساسي الذي قمت به في وضع «القالب الفني» للمرة الأولى في تاريخ الأدب العربي للرواية التمثيلية... وصنعه على أساس فني صحيح. وإلا فإن محاولات كثيرة قد سبقتك لوضع هذا القالب (أشرت أنت إليها إشارة سريعة في مقدمتك، وسبقناولها تاريخ النقد بالتفصيل والتطويل) إلى أن جئت أنت فوفقت نهائياً لتكوين قالب فني للحوار يحمل «فكرة» تدخله في باب الأدب، ونهج نهجاً لم يلحقك فيه إلى اليوم أحد، ولست أدري متى يظهر التالي لك، أو المتفوق عليك، فيه؟

***

هذا دورك الذي لن ينسى. دور في «تاريخ التطور الفني». أما نصيبك الذي سيبقى في باب «القيم الفنية المطلقة» فأخشى أن أقول: إنك لم تقم به بعد، لأنك — في باب التمثيليات — لم تهتد بعد إلى النبع الأصيل الذي تستقي منه روحك العميقة لا فكرك الواعي، فتنشيء عملاً خالداً فيه حياة وروح

لقد اهتديت أحياناً إلى النبع — ولكن فى باب غير باب التمثيلية — فى : « تائب فى الأرياف » وفى « عودة الروح » وفى لمحات متفرقة فى « زهرة العمر » وبعض كتبك الأخرى . أما فى باب التمثيلية ، فلم يكن لك — غير القالب الفنى — شىء يبقى ، اللهم إلا خفقات ضائعة مخنوقة فى ركام أجنبى غريب !

معذرة يا صديقى ، فذلك وجه الحق فيما أرى . وستعلم بعد قليل لماذا أرى . أما الآن فأحب أن أسجل حقيقة أخرى — إن دورك هذا الذى حققته إلى اليوم فعلا ، ليس صغيراً ولا قليل الأهمية . فهو دور حاسم فى تاريخ هذا الفصل من كتاب الأدب العربى . إنه القنطرة التى لم يكن منها بد ، ليمر عليها الفنان الأصيل الموهوب فيما بعد . وقد تكون أنت نفسك ذلك الفنان الأصيل الموهوب فى عمل فنى جدير ، حينما تهتدى إلى النبع الأصيل المخزون فى نفسك تحت ركام من الثقافة الغربية الطاغية .

إنى لا أعيب الثقافة — فهى أمر لا بد منه اليوم لتكون الأديب — ولكن الذى أعنيه أنك أيها الصديق — شأنك فى هذا شأن ذلك الجيل كله من الشيوخ — تساهم ثقافتك الغنية الغربية ، قبل أن تجد ذاتك الأصيلة .

من هنا يفقد فنك — كما تفقد أعمالهم جميعاً — ذلك الطعم الخاص الذى يتذوقه القارىء فى آداب كل أمة ، والذى يميزه عن آداب الأمم الأخرى .

إنكم لا تجدون أنفسكم فى خضم ثقافتكم . إنكم تمتحون من رؤوسكم أكثر مما تستوحون قلوبكم . وهذا هو العنصر الخطر عليكم جميعاً .

إنك تهتدى إلى النبع فى مقدمتك ، ولكن بذهنك الواعى ، لا بشعورك الناضج . لهذا يخطئك التوفيق عند التطبيق .

تقول :

« ما من شىء أقوى من الميراث ! — إذا كان للخلود يد فإن الميراث يده التى ينقل بها الكائنات من زمان إلى زمان — ما طبائع الأفراد وخصائص الشعوب ومقومات الأمم ، إلا ميراث صفات وسمات ، تنحدر من جيل إلى جيل . وإن ما يسمونه العراقة فى شعب ليس إلا فضائله المتوارثة من أعماق الحقب . وإن الأصالة فى الأشياء والأحياء هى ذلك الاحتفاظ المتصل بالمزايا الموروثة كابراً عن كابر ، وحلقة بعد حلقة . . هكذا يقال فى شعب أو رجل أو جواد . وكذلك يقال فى فن أو علم أو أدب . . » .

كلام صادق ثمين عميق جميل — ولكنك تعرفه بوعيك يا صديقى ، ولا يمكن مهما فعلاً دون أن تدرى ، فى اتجاهاتك الفنية وأعمالك .

لقد اتجهت وأنت تحاول وضع القالب الفنى للتمثيلية المصرية إلى الأساطير الإغريقية تستلهمها موضوعاتك . لماذا ؟ لأن نشأة المسرح كانت إغريقية ، ولأن الأوربيين — وهم ورثة الإغريق — قد جعلوا المسرح الإغريقى والتمثيلية الإغريقية والأساطير الإغريقية أساساً لأعمالهم !

ولكنك أنت يا سيدى لست من ورثة الإغريق . لا أنت ولا شعبك الذى تعيش فيه . قد تكون من ورثتهم بثقافتك وقراءتك ولكن هذه قشرة رقيقة لا تشىء فناً خالداً أصيلا .

« ما من شىء أقوى من الميراث . إذا كان للخلود يد فإن الميراث يده التى ينقل بها الكائنات » ، كما تقول !

إنك فى حاجة لأن تستلهم وراثتك الأصيلة المتغلغلة فى ضميرك آلاف السنين ومئات الأحقاب ، لا أن تستلهم ثقافتك الطارئة فى عمرك الفردى المحدود .

هنالك النبع يا صديقى لو شئت لأعمالك الخلود !

***

لقد تساءلت . لماذا لم ينقل العرب ، فيما نقلوا عن الإغريق ، التراجيديا الإغريقية ؟ وكان من بين التعليلات التى ذكرتها — وإن لم ترضها — « صعوبة الفهم لذلك القصص الشعرى ، وكله يدور حول أساطير لا سبيل إلى فهمها إلا بشرح طويل ، يذهب بلذة التتبع لها ، ويقضى على متعة الراغب فى تذوقها » .

لقد كدت تضع يدك على السر ، ولكنك تركته مسرعاً لتقول :

« لكن على الرغم من مواجهة هذا التعليل ، فإنى لا أعتقد أن هذا أيضاً يحول دون نقل بعض آثار هذا الفن . فإن كتاب الجمهورية لأفلاطون قد ترجم إلى العربية . وما أشك أن فيه من الأفكار حول تلك المدينة المثالية ما يشق على العقلية الإسلامية أن تسيغه . ولكن ذلك لم يمنع من نقله — بل إن هذه الصعوبة

بالذات قد دفعت الفارابي إلى أن يتناول جمهورية أفلاطون ، فيضفي عليها ثوباً جديداً من خواطره ، ويصبها في قالب عقليته الفلسفية الإسلامية » .

وهكذا تبدد نهائياً من السر وكان منك على لسة إصبع !

إن الفارق بين كتاب الجمهورية والتراجيديا الإغريقية لبعيد .

إن الجمهورية موضوع يحتاج إلى (فهم) والتراجيديا موضوع يحتاج إلى (شعور) . وهذه هي العقدة في قضية العرب والفن الإغريقي ؛ ثم في قضيتك أنت بالذات يا صديقي العزيز .

إن الصعوبة الأساسية في الأساطير واستلهامها ليست في الحاجة إلى (الفهم) فالفهم قد يكون ممكناً بالشرح على نحو من الأنحاء . ولكن الصعوبة الحقيقية كامنة في الشعور بها في أعماق الضمير . إن الأسطورة تنبع من ضمير الشعب لا من رأسه ؛ وتعيش كامنة في دمه وأحاسيسه . هي « ميراث » شخصي لكل شعب ، لا يمكن نقله إلى ضمائر الشعوب الأخرى ، كما يمكن نقل الثقافات إلى الرؤوس ، بل كما يمكن أحياناً نقل الأعمال الأدبية التي لا تقوم على أسس وراثية كالأساطير .

لا بد أن تعيش الأسطورة حياتها في تاريخ الأمة وضميرها ، حتى يستسيغها ذوقها ، وتنبض لها قلوبها .

لهذا لم يكن ممكناً أن يشعر العرب بجمال التراجيديا الإغريقية المستمدة في صميمها من هذه الأساطير ، ولا أن تنتقل إلى تراثهم كما انتقلت الفلسفة ، لأن الفلسفة تراث ذهني في الأغلب ، والأسطورة تراث شعوري في الصميم .

هذه هي المشكلة . أما ما قلته من أن السبب الأساسي هو شعور العرب بحاجتهم إلى الفلسفة وإلى المعارة ، وعدم شعورهم بالحاجة إلى الشعر . فهو نفسه يحتاج إلى تعليل ! لماذا لم يشعروا بحاجتهم إلى الشعر ؟ لأن شعرهم كان فيه الكفاية للتعبير الكامل عن حياتهم الشعورية الأصيلة ؛ ولأن الشعر الإغريقي لم تمس أساطيره في ضميرهم ، ولم تندس في كيانهم لتصبح شيئاً قاتماً تائهاً كما كانت في كيان الإغريق !

* * *

هنا نجيء لمشكلتك أنت بالذات . بل لمشكلة جميع الذين يحملون الأساطير الإغريقية أساساً لأعمالهم الفنية ، ولو كانوا من الأوربيين المحدثين — على أنهم ورثة هؤلاء الإغريق — !

إن الأسطورة لا تعيش في دمائكم — وفي دمك أنت المصري بوجه خاص . إنها لم تنبع من ضمير شعبك . إنها لم تصاحب تاريخك . فكيف تنشيء منها أدباً له حياة ؟

قد تقول : إنك تحسن عملك الفني على أساس يتفق مع طبيعة الأسطورة ؛ بل مع طبيعة التراجيديا الإغريقية ، وقد قلت ذلك . قلت : إن الشعور الديني هو أساس التراجيديا ، وأن هذا الشعور عميق في حسك . فأنت تشعر بازدواج العالم ولا ترى أن الإنسان وحده في هذا الوجود .

ولكن هذا كلام عام . ألمح فيه تفكير الذهن ولا أتذوق فيه طعم الشعور .

إن الميثولوجيا الإغريقية مختلفة في طبيعتها عن التبعين الأصيلين لك كمصري مسلم . فلا هي تتفق مع طبيعة الميثولوجيا المصرية القديمة ولا مع العقيدة الإسلامية الحديثة .

الآلهة في الميثولوجيا الإغريقية تدفعها حيوية عارمة إلى كل تصرفاتها . حيوية لا تعرف العدل والحق والخلق والمصير ، لأنها حيوية عاتية شهوانية باطشة . فليس لديها ما يمنع من صب كل هذه اللعنة على «أوديب» لمجرد شهوة أو حقد من «أبولون» . كذلك صنعت مع «هرقل» وكذلك صنعت مع «بروميثيوس» وغيرهما . وجو الأساطير الإغريقية كلها يوحي بهذا الطابع الخاص الأصيل . وهذه الآلهة نفسها يسيطر عليها «القدر» أو قوة تشبهه ، وقد لا تكون مخيرة هي الأخرى في دفعاتها وشهواتها وبطشاتها !

والآلهة في الميثولوجيا المصرية القديمة تسيطر عليها فكرة العدل والخلق والحق — في الغالب — فلعنة مثل لعنة «أوديب» غير مستساغة في ضمير الميثولوجيا المصرية القديمة .

فأنت — يا صديقي — بضميرك المصري القديم لا تعيش في نفسك هذه الأسطورة الإغريقية !

وأما الإسلام فينبذ نهائياً فكرة الشهوة والظلم من ذات الله . وقد بينت أنت نفسك أن فكرة القدر في الإسلام لا تتفق مع الفكرة الإغريقية .

فأنت — يا صديقي — بضميرك الإسلامي الحديث ، لا تعيش في نفسك هذه الأسطورة الإغريقية !